الإسلام-فوبيا[1]: جينيالوجيا المفهوم وأصول الظاهرة

Islamophobia: Genealogy, Understanding, and the Origins of the Phenomenon

Dr. Youssef Elkaddaoui

د. يوسف القضّاوي[2]

ملخص البحث:

يعتبر مفهوم الإسلام-فوبيا من المفاهيم المستحدثة في الفضاء المعرفي الذي يعنى بدراسة العلاقة بين الإسلام والغرب في فترة ما بعد الحرب الباردة وسقوط جدار برلين حيث توجهت سهام الغرب صوب بلاد الإسلام، فأصبح دارجا على لسان المفكرين والسياسيين والإعلاميين خصوصا، للدلالة على حالات الخوف والتشويه والتمييع الممارسة في حق الإسلام ومعتنقيه.

إن لظاهرة الإسلام-فوبيا جذورا ضاربة في أعماق التاريخ وأصولا مبثوثة في البنية الفكرية للغرب، هذه البنية غالبا ما ترتكز على الاستعلاء والنظرة الدونية للآخر وتسويغ العنصرية والاستكبار بحجج واهية، مما أدى إلى إنتاج نظريات يتمحور مضمونها حول الصدام بين الحضارات، فتأجج الصراع الهوياتي بين الغرب باعتباره مركزا والمسلمين لكونهم هوامش ينبغي أن تكون تابعة بل ومُتحكّم فيها، فلم يجد الغرب منهجا سوى زعزعة ثقة المسلمين بأنفسهم وبثّ الفوبيا من الإسلام.

[**الكلمات المفتاح:** الإسلام - الفوبيا - الغرب - جينيالوجيا - السكولوجيا - السوسيولوجيا]

Absract

The concept of Islamophobia is regarded as a newly emerged notion within the intellectual realm that focuses on studying the relationship between Islam and the West in the post-Cold War era and after the fall of the Berlin Wall. During this period, Western attention shifted towards the Islamic world, and the term gained currency, particularly among intellectuals, politicians, and media figures. It is employed to signify instances of fear, distortion, and marginalization directed towards Islam and its followers.

(1) أكتب الكلمة مركبة من لفظين بينهما عارضة على شاكلة الكلمات المركبة في اللغات الأجنبية Compound words، ولا أكتبها لفظا واحداً لأن الجمع بينهما أمر لا يستقيم إلا إذا استقام الجمع بين الضدين كالثلج والنار فأقول نار متجمدة أو ثلج محرق، فتصبح فاقدة للمعنى.

(2) أستاذ الفلسفة والفكر، أكاديمية تطوان طنجة الحسيمة للتربية والتكوين، المغرب.

The phenomenon of Islamophobia has its roots deeply embedded in the historical narrative and stems from the foundational principles ingrained in the intellectual framework of the West. This framework often relies on notions of supremacy, a condescending attitude towards the Other, and the rationalization of racism and imperialism on weak justifications. Consequently, theories have emerged centering around the clash of civilizations, fueling identity conflicts between the West—perceived as the core—and Muslims, relegated to the periphery and expected to be not only subordinate but also under control. Faced with this, the West opted for a strategy that involves undermining the self-confidence of Muslims and disseminating Islamophobia.

[**Keyswords**: Islamophobia - West - Genealogy - Psychology - Sociology].

مقدمة:

في مطلع التسعينيات من القرن الماضي أحس ثلة من المعنيين بشؤون الغرب لا سيما المفكرون والفلاسفة بالقلق والاضطراب تجاه الفراغ الذي تركه انهيار الاتحاد السوفياتي ذي التوجه الشيوعي في الشرق، فلم يكترثوا لطروحات الكُتّاب التي انتشت ببلوغ العالم نهاية التاريخ التي بشر بها فرنسيس فوكوياما، بحيث كشف صمويل هنتنجتون أن هذه النظرية محض أوهام وأضغاث أحلام، فلا تزال هناك تيارات تغذيها العقيدة ويحركها التاريخ، تتدافع خلف الأحداث لتقطع على الغرب نشوة الانتصار على العدو الشيوعي، مشيرة إلى أن معركة نهاية التاريخ لمَّا تحسم، ولا تزال في الحرب الحضارية جولات، الأمر الذي كرس حالة الخوف التي تلبست بالغرب وسكنت وجدانه من جديد بصورة لا تخلو من تضخم، إذ بدا هذا الخوف مفتعلا ومتوهما أكثر منه حقيقة وواقعا، بل أضحى ضرورة من ضرورات الحياة في المجتمعات الغربية.

لقد أثبت التاريخ بأن الغرب إذا لم يجد عدواً تتوجه إليه سهام عدائه وكراهيته، فإنه ينقلب على نفسه ليأكلها، وهو ما تدل عليه الكثير من الوقائع الأحداث التي عرفها الغرب خلال تاريخه الطويل كالحروب الدينية والمذهبية والصراعات الإقليمية والعرقية. وفي هذا السياق تأتي مقولة نيتشه الشهيرة «إن العبور للجهة المقابلة مخاطرة، وفي البقاء وسط الطريق خطر، وفي الالتفات إلى الوراء، وفي كل تردد وفي كل توقف خطر في خطر»[1] التي تفسر بدقة حيرة الغرب ولهفته في إيجاد فريسة يسد بها رمقه ويشفي بها غليله ويرضي بها كبرياءه.

(1) فريدريك نيتشه. هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس فارس، (دار القلم، بيروت، د ت)، ص 28.

من هذا المنطلق كانت الدعوات إلى حتمية العثور على بديل يحل محل الشيوعية الحمراء، فلم يكن ثمة اختيار خير من وضع الإسلام في دائرة الخطر من خلال برنامج خوافي وَرُهابي أو ما اصطلح عليه الإسلام-فوبيا، وهذا ما أقره الرئيس الأمريكي الأسبق رتشارد نيكسون؛ حيث قال «إنه بعد سقوط الاتحاد السوفياتي سيواجه الغرب والولايات المتحدة خصوصا ماردا جديدا هو الإسلام، فينبغي على الولايات المتحدة أن تعمل وبسرعة على الإتيان بالريادة الروحية للعالم قبل أن يفيق المارد الأخضر من نومه»[1].

لقد تبنى الغرب حالة الخوف من الإسلام أو ظاهرة الإسلام-فوبيا باعتبارها رافدا من روافد تحقيق الأمن والاستقرار، وباعثا من بواعث التسلح والتأهب لمواجهة الأعداء الحقيقيين والمفترضين، ودافعا من دوافع الاستزادة من التنمية القائمة على السلب والنهب الحضاريين، لأن «الغرب مستعد للقيام بأي عمل مهما كان شرسا وتدميريا لمنع قيام وضع في منطقة الشرق الأوسط، يهدد تزويده المنتظم بالبترول. ليس هذا وحسب، بل إن الغرب يعتبر نفسه صاحب حق في النفط العربي وليس مجرد زبون، ويرى أنه هو الذي اكتشفه وهو الذي صنّعه، وبالتالي فليس من حق العرب أن يتصرفوا فيه تصرف المالك الوحيد المستقل... ولا بد من الحصول على سعر معقول للحفاظ على نمط الحياة الغربية»[2].

إن الغرب بدون خوف يخلد إلى السكينة والطمأنينة اللتان تجلبان الخطر، فمن المسلمات القطعية في الفكر الغربي أن الحياة لا يمكن أن تستمر إلا على حساب الآخرين، وهذا تؤكده نظريات وفلسفات غربية كالداروينية والنيتشوية وغيرهما، والتي تبعث على التوتر والتشاؤم من مستقبل ملبد بالغيوم والضبابية، مستقبل مشوب بالحذر والخوف والترقب بهدف تكريس الخضوع والخنوع والاستسلام لدى المختلف.

إشكالية البحث:

في الوقت الذي تبدو حاجة العالم ملحة لقيم تنقذه من حالة الشقاء والعناء، ومن الأزمات المادية والمعنوية، وتَقِيهِ من نوبات القلق النفسي، ومن حالات الابتذال الروحي والاختناق الأخلاقي التي تُؤذِن بانحطاطه وانهياره، قيمٍ تعصمه من التعصب والانحراف،

(1) النفيسي، عبد الله. الإسلام والغرب: نحو عالم أفضل، (مركز الجزيرة للدراسات والأبحاث، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2007)، ص 70-71.

(2) الجابري، محمد عابد. مسألة الهوية: العروبة والإسلام... والغرب، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 3)، ص 145.

ومن ظلم الأنانية المستعلية والاعتداد بالنفس، وتعيده إلى صوابه واتزانه، قيمٍ ترد إليه اعتباره وإنسانيته وترسو به في مرافئ الأمن والسلام، في وقت كهذا تجتاح العالم موجة العداء والحقد والكراهية.

إن هذا الأمر يكثف الشعور بأن هناك جهات وقُوى يضرها أن يهنأ العالم ويسعد بهذه القيم، ويسوؤها أن تنعم الإنسانية بها، ولا شك أن هذه القيم تتجسد في مضمون الرسالات السماوية ولا سيما الإسلام، الذي يعتبر ملاذا أخلاقيا وحضاريا لكل إنسان يروم التحرر من هيمنة السياسات الظالمة أيّاً كان مصدرها، وهو ما يراه منظرو الفكر الغربي خطرا يتهدد مستقبل هيمنتهم على العالم المقهور والمكبل، ولهذا كان الترهيب من الإسلام والتخويف منه وبه أحد الوسائل لإبقاء مقاليد الأمور بيد الغرب. وفي هذا السياق انبعثت ظاهرة الإسلام-فوبيا؛ فما المقصود بهذا المفهوم؟ وكيف تشكل رغم التمايز الظاهر بين مكوناته؟ وما هي أصول هذه الظاهرة؟

المبحث الأول: الإسلام-فوبيا: جينيالوجيا المفهوم

ننوه في البداية إلى أن مسألة التعريف بالمصطلحات تثير التباسا وإشكالات كثيرة لأسباب متعددة، إما لتعقيدات الظاهرة موضوع البحث أو لاختلاف رؤى الأشخاص لها تبعا لمشاربهم الثقافية أو مدارسهم الفكرية أو اختصاصاتهم أو معتقداتهم أو غيرها من الأسباب التي تجعل من الصعب الوقوف على تعريف محدد للمصطلح، وهذا الشيء ينطبق أشد الانطباق على المصطلحات الفكرية المتأثرة بالنشاطات السياسية والاجتماعية في عصرنا الراهن.

ويعتبر مفهوم الإسلام-فوبيا من المفاهيم المستحدثة في الفضاء المعرفي الذي يعنى بدراسة العلاقة بين الإسلام والغرب في فترة ما بعد الحرب الباردة وسقوط جدار برلين حيث توجهت سهام الغرب صوب بلاد الإسلام، فأصبح دارجا على لسان المفكرين والسياسيين والإعلاميين خصوصا، للدلالة على حالات الخوف والتشويه والتمييع الممارسة في حق الإسلام ومعتنقيه.

مصطلح الإسلام-فوبيا مكوَّن من شقين: الإسلام والفوبيا، فماذا تعني كلمة الإسلام؟ وما مدلول مصطلح الفوبيا؟ وما سبب تمسّك وتعالُق أحدهما بالآخر، رغم ما يبدو بينهما من تمايُزٍ يصل حد التنافر والتضاد؟

1. الإسلام:

في المرجعية العربية الإسلامية يحيل إلى الدين الذي أوحى به الله إلى سيدنا محمد ﷺ، ذلك ما نجده في المعاجم العربية، ففي لسان العرب نقرأ: «الإسلام: إظهار الخضوع، وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي ﷺ»[1]، وفي القاموس المحيط « سلم وأسلم أي انقاد وصار مسلما، وأسلم أمره إلى الله بمعنى سلمه»[2]، فهو يحمل معاني الخضوع والامتثال والانقياد لكل ما أمر به أو نهى عنه.

وفي الاصطلاح يرد الإسلام بمعنيين:

الأول: ويشمل كل معاني العبودية لله تعالى التي جاء بها الوحي، قرآنا وسنة، من صلاة وزكاة وصيام.

والثاني: يطلق على مرتبة من مراتب الدين التي حددها حديث جبريل عليه السلام[3] في ثلاث: إسلام وإيمان وإحسان.

وعلى العموم ليس في المرجعية العربية الإسلامية معنى آخر للإسلام غير مضمونه الديني ذاك، وهو مضمون يتسع في القرآن ليشمل الديانات السماوية التي تنتمي إلى دين سيدنا إبراهيم عليه السلام، يقول الله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران:19). أما في المعاجم الفرنسية فنسب الإسلام للنبي محمد ﷺ بغية نفي الصفة الإلهية عنه، بهدف عدم مساواته بالديانتين النصرانية واليهودية حيث جاء في معجم الأكاديمية الفرنسية «الإسلام ديانة المحمديين، أو مجموع البلدان التي تؤمن بالديانة المحمدية... وهو مرادف للحركة الإسلامية»[4].

ويقدم معجم لاروس الإسلام على أنه «ديانة المسلمين الذين يلتزمون برسالة محمد... ومجموع الشعوب التي تمتح من هذه الرسالة»[5].

(1) ابن منظور، محمد بن جلال الدين بن مكرم. لسان العرب، (طبعة دار المعارف، بدون تاريخ)، مادة سلم

(2) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، (دار الفكر، مادة سلم. الجوهري، الصحاح في اللغة، دار العلم للملايين)، مادة سلم.

(3) ينظر الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري. الجامع صحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (دار عالم الكتب، الرياض، ط 1، 1417هـ)، رقم 8.

(4) Dictionnaire de L'Académie français, 8éme Edition (1932 – 35) (ISLAM .n.m. la religion des mahométans ou l'ensemble des pays mahométans, il est synonyme d'islamisme).

(5) Dictionnaire Larousse, librairie Larousse, paris, 2005 (Religion des musulmans, de ceux qui adhérent au massage de Mahomet. Ensemble des peuples qui professent cette religion).

وبالجملة فقد عرفت المراجع الغربية الإسلام بأنه:

أ. الدين بما هو عقائد وشعائر وشرائع وتاريخ وحضارة.

ب. من الناحية البشرية، كل الشعوب والأمم التي اعتنقت الإسلام دينا وساهمت فيه فكرا وحضارة.

ج. من الناحية الجغرافية، كل الأقطار التي دخلت في حوزة المسلمين، واعتنق أهلها الإسلام وتمتد من المحيط الأطلسي إلى حدود الصين.

د. من الناحية التاريخية يمتد من ظهور الإسلام في نهاية القرن السابع الميلادي إلى يوم الناس هذا.

ووفقا لهذه المراجع يقسم المفكر محمد عابد الجابري رحمه الله الإسلام إلى ثلاثة أقسام:

«إسلام النموذج المثال وهي الصورة التي يكونها المسلمون لأنفسهم، وتحققت في فترة النبوة، وبدرجة أقل في عهد الخلافة الراشدة. الإسلام التاريخي الذي مارسه المسلمون عقيدة وسلوكا، طوال الأربعة عشر قرنا الماضية والذي ينظر إليه أنه كان دائما دونما ينبغي أن يكون. الإسلام بالمعنى الاستشراقي، ويقصد به الحضارة التي قامت في أعقاب الفتوحات الإسلامية، والتي كانت لها مراكز رئيسية في الشام والمغرب والأندلس»[1]. ومن دون شك فالذين يستعملون الإسلام مضافا لكلمة فوبيا لا يقصدون المعنى الأول باعتبار أن الصدام بين الإسلام والغرب ممثلا في الإمبراطورية البيزنطية لم يحدث في هذه الفترة، وكذا لأن الإسلام لم يضطهد الأقليات المسيحية ولا اليهودية التي كانت مقيمة في جغرافية بسط نفوذه، وإنما عاملهم بوصفهم مواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات. أما المعنيان الثاني والثالث للإسلام فتحضر فيهما حالة الخوف أو الفوبيا بقوة، اعتبارا للمواجهة التي احتدمت بين القطبين انطلاقا من دولة بني أمية، حيث وصل المسلمون إلى حدود فرنسا بعد انهيار خط الدفاع الأول للغرب المتمثل في الإمبراطورية البيزنطية، فكان لهذا الصراع أثره البالغ في علاقة الإسلام بالغرب، أنتج إحساسا بالخوف وعدم الثقة بين الطرفين أو ما يسمى الآن إسلام-فوبيا، فما هي الفوبيا؟

(1) مسألة الهوية: العروبة والإسلام... والغرب، مرجع سابق، ص 49.

الفوبيا:

جاءت منPhobos وهي الكلمة اليونانية الدالة على لخوف، وقد استخدمت لأنواع المخاوف الخاصة وغير العاقلة...هذه المخاوف قد تكون عميقة جدا في عقل الإنسان، لدرجة أنه لا يقدر أن يصل إلى إدراك أسبابها الحقيقية بالطريقة الواعية البسيطة، ذلك أن «المخاوف الشاذة أو الفوبيا هي خوف مرضي من شيء معين أو فعل معين لا يثير الخوف في العادة عند أغلب الناس، فهو خوف دائم لا يعرف الفرد له سببا أو مبررا موضوعيا كما لا يستطيع ضبطه والسيطرة عليه بالإرادة، وفي الوقت ذاته يشعر أن سلوكه في بعض المواقف يثير القلق، ويعمل على إثارة ضحك الآخرين، ويجب ملاحظة أنه على الرغم من أن الفرد في حالات الخوف المرضي لا يعرف السبب أو المبرر الموضوعي لحالته هذه – كما أوضحنا – فإن المريض يعلم تمام عدم جدواه، وانه لا يوجد خطر عليه في تعرضه لهذا المنبه، إلا أنه لا يستطيع التحكم فيه أو ضبطه، ولعل السبب في عدم إدراك الفرد سبب هذا الخوف هو أن المرض ارتبطت فيه أحداث الاستجابة الخاصة بالمثير الأصلي بإحداث مثير آخر غير طبيعي (شرطي) كحادثة قديمة مرَّ بها المريض في طفولته، فأصبح المثير الشرطي يفعل ما يفعله المثير الأصلي والطبيعي، ونظرا لأن هذه العلاقة لا تكون واضحة في الغالب في ذهن الفرد، فهو يستجيب لمؤثرات المثير الشرطي دون أن يعرف العلاقة بينهما، من هنا جاء جهله بالأسباب»(1).

يميز سيجموند فرويد بين ثلاث أنواع من الخُوافات أو الفوبيات:

«**الأولى**: موضوعات لها طابع بشع مستكره حتى بالنسبة للأسوياء... ومنها الخوف الذي يتسم بالنفور والتقزز، مثل خواف الثعابين الذي يشمل الجنس البشري كله.

الثانية: مواقف بينها وبين الموضوعات الخطرة صلة، كالسفر بالسكة الحديد، وما فيه من مخاطر الاصطدام، والسفر بالسفن والخوف من أن تغرق...وما يبدو مستغربا في هذه الخوافات هو شدتها.

الثالثة: يبدو الخوف فيها مستغربا، فقد يبدو من غير المعقول أن يخاف الرجل الطويل العريض من الفأر مثلا، أو من الصرصار»(2).

(1) مجدي، أحمد محمد عبد الله. علم النفس المرضي دراسة في الشخصية بين السواء والاضطراب، (دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000)، ص 177.

(2) Freud, Sigmund. Analysis of a phobia in Five year old Boy, 1909 نقلا عن الحنفي، عبد المنعم. المعجم الموسوعي للتحليل النفسي، (مكتبة مدبولي، مصر، 1995)، ص 443–444.

من خلال هذه المحددات يتبين ما يلي:

1. الفوبيا كلمة يونانية الأصل، مستمدة من علم النفس المرضي، وتعني الخوف الوهمي اللامبرر واللامنطقي من أشخاص أو أشياء أو مواقف...
2. مرضى الفوبيا سجناء رغبة سرية تتحكم في شخصياتهم.
3. الفوبيا لا تلحق ضررا ماديا بأصحابها، وإنما تحد من حركتهم وتعيق تقدمهم.
4. الفوبيا مبثوثة في وجدان أصحابها وتتحكم في عقوهم.
5. مرضى الفوبيا لا يعرفون الأسباب الحقيقية لمخاوفهم.
6. مرضى الفوبيا يستجيبون لمثير شرطي غير طبيعي قد يكون مفتعلا يقوم مقام المثير الطبيعي.

وفي اعتقادي أن تعسفا لغويا حصل أثناء الجمع بين مكونات هذا المفهوم، أي الإسلام والفوبيا، فالأول رمز السلام والأمن والرحمة واللين، وإن ظهرت على بعض معتنقيه أخلاق مناقضة لما سلف ذكره، فإنها لا تعدو أن تكون أخطاء فردية شاذة، والشاذ لا يبنى عليه حكم، بينما الثاني يحيل قطعا على معاني الرعب والهلع والخوف والرهبة... فهل يمكن أن يكون الإسلام الذي يعني في بعض معانيه السلام والطمأنينة منبعا للخوف والرعب!؟ والله تعالى يقول في محكم تنزيله مخاطبا نبيه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:107).

إذا كان الأمر كذلك، فما السر الكامن وراء هذا التَّعالُق بين المصطلحين؟ وما هي أبعاده؟ وما هو المدلول الذي حُمِّل هذا المصطلح غير المتجانسة أجزاؤه؟

يجيب المعجم الصادر عن مركز المساواة في الحظوظ الموجود ببروكسيل، أن الخوف المرضي من الإسلام أو الإسلام-فوبيا «هي عبارة عن كراهية ورفض لنوع من الإسلام، يتم تقليصه في ماهية الشر... إن الإسلام حدث اجتماعي وجغرافي وثقافي، وإن هذه الكراهية تتغذى بتصورات سلبية وجامدة، تخلط بين مفاهيم الإسلام والإرهاب والتطرف، كما تخلط بين الدين والثقافة»[1].

إن هذه النظرة الرهابية الغربية من الإسلام تضبطها معايير وأبعاد سبق لمؤسسة رانميد تراست البريطانية Runnymede trust أن حددتها في دراسة قامت بها سنة 1997، يمكن إجمالها في:

(1) المديني، توفيق. تصويت العارفي سويسرا يغذي الإسلام-فوبيا، (جريدة الشرق القطرية، ع 7844، الاثنين 7-1-2009).

- اعتبار الإسلام جسما أحاديا جامدا ينْذُر أن يتأثر بالتغيير.
- ليس للإسلام أي قيم مشتركة مع الثقافات الأخرى، وهو لا يتأثر بها ولا يؤثر فيها.
- الإسلام دين عنيف وعدواني، مفطور على الإرهاب وصدام الحضارات، ويشكل مصدر خطر.
- أي نقد يقدمه الإسلام للغرب مرفوض.
- الإسلام ذو نزعة بربرية وغير عقلانية لذلك يحتل مرتبة دونية بالنسبة للغرب.
- عداء الغرب للإسلام ورموزه أمر عادي وطبيعي.
- استعمال هاجس الخوف من الإسلام لتبرير كل الممارسات التمييزية تجاه المسلمين وإقصائهم وعزلهم وتهميشهم عن المجتمع.
- الإسلام إيديولوجيا سياسية لتحقيق مصالح عسكرية وسياسية[1].

يتضح من خلال هذه النقط الثمانية، أن ظاهرة الإسلام-فوبيا تستند إلى خلفيات تاريخية، دينية واقتصادية وسياسية... تتجلى في الزخم الهائل من الانطباعات الخاطئة، والتصورات المشوهة حول خاتمة الرسالات السماوية، الناسخة لما قبلها، المحفوظة من التحريف والتزييف من قبل الحق عز وجل، الذي بعث نبيه محمد ﷺ هداية وأمنا ورحمة للناس جميعا، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:107)، بل إن النبي ﷺ ما أرسل إلا ليؤكد على القيم والأخلاق التي تواترت بها الرسالات السابقة وتصويب ما فسد منها، مصداقا لقوله سبحانه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى:13)، إنسانية مخلصة، لاسيما وأن هناك دولا أخرى غير إسلامية هي في الواقع أحوج إلى هذه الشعارات.

من أبعاد الظاهرة المثيرة للدهشة حقا، إصرار الإعلام الغربي على إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام، محاولا أن يرسخ في الوعي أنه جزء من الدين الإسلامي، ومتجاهلا في الآن ذاته عوامله الموضوعية، كالاحتلال الصهيوني لفلسطين والجولان، والأمريكي للعراق وأفغانستان، وقتل المسلمين في بورما وإفريقيا الوسطى واضطهادهم في الصين والهند، في

(1) ينظر تقرير المنظمة على الموقع:
http://www.Runnymedetrust.org/uploads/publications/pdfs/islamphobia.pdf

حين أنه عندما يتعلق الأمر بالإرهاب ببلدان أخرى غير عربية وغير إسلامية يصرف النظر تماما عن ربطه بالدين ليركز على عوامل أخرى موضوعية في الغالب.

ومنها أيضا، تنامي الخطاب التخويفي من تزايد عدد المهاجرين في البلدان الغربية، نتيجة ارتفاع نسبة الولادات، والتجمع العائلي والهجرة السرية «المشروعة»، مما يهدد الوحدة الوطنية ووحدة العرق، وينال من الديانة المسيحية التي تفقد أتباعها الذين يلتحقون بالإسلام، فصرنا نسمع أن الإسلام هو الديانة الثانية في فرنسا مثلا، والواقع أن موقف الغرب حيال قضية المهاجرين يتأرجح بين الخوف من أن يشكلوا نسبة عالية من السكان، والشعور بالحاجة إلى هذه النسبة لحل مشاكل العمل والتقاعد والخدمات الاجتماعية...

أما **البعد الاقتصادي** لهذه الظاهرة فيقوم على مرتكز أساس يتجلى في التوجس خيفة من الوقوع في حالة الندرة المحتمل حدوثها في الغرب، التي ستخلخل التوازن الاجتماعي والسياسي والاقتصادي... وتضع المجتمعات الغربية على شفا الانهيار والضياع، خاصة وأن المسلمين «غير متحضرين، وأُقذار وبرابرة وغير عقلانيين.. إلا أن الحظ حالف بعض قيادتهم وأصبحوا حكاما على مناطق تحتوي على ثلث الاحتياطي العالم من النفط»[1]، لذلك يعزو الكثير من المفكرين الهجمة الخُوافية الغربية الشرسة على الإسلام إلى دوافع سيكولوجية ورغبات اقتصادية لا يريد الإعلام الغربي الإفصاح عنها «فالغرب مستعد للقيام بأي عمل، مهما كان شرسا وتدميريا لمنع قيام وضع في منطقة الشرق الأوسط، يهدد تزويده المنتظم بالبترول، ليس هذا وحسب، بل إن الغرب يعتبر نفسه صاحب حق في النفط العربي وليس مجرد زبون»[2].

لقد ظل الغرب جاهلا بالإسلام جهلا قاده إلى الخوف غير المبرر والعداء، ذلك لأن الغرب بنفسه كان متخلفا كمجتمع وحضارة، وتلك الحالة ولدت اتجاها سلبيا نحو الإسلام أعاق الفهم الحقيقي لما يرمي إليه هذا الأخير من خير للبشرية. فقد استغلت الكنيسة وسدنتها هذا الجهل استغلالا بشعا، وأسهمت في تهييج هواجس الخوف وتأجيج نار الحقد والكراهية تجاه الدين الجديد ورموزه.

لقد تمكن الغرب من التحرر من ديكتاتورية الكنيسة بعد سيادة الفكر اللائيكي الذي عمل على فصل الدين عن الدولة، لكنه أخفق في الحد من نوبات الحقد والكره حيال الإسلام، إذ كان من المفترض أن يتميز هذا التيار بنوع من الموضوعية في نظرته للإسلام،

(1) الميلاد زكي والربيعو تركي. الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل، دار الفكر، دمشق، 2000، ص 96.

(2) مسألة الهوية: العروبة والإسلام.. والغرب، مرجع سابق، ص 145.

ويسهم بشكل إيجابي في نقل الصورة كما هي دون تشويه، وينظر إلى الإسلام بوصفه مكوِّنا هاما ومكملا للتاريخ البشري، لكن دون جدوى.

وعلى الرغم من أن «العثمانيين كانوا يُستقبلون كمحررين أكثر من كونهم غاصبين»(1)؛ إلا أن فتوحاتهم، رغم تسامحها، كان ينظر إليها من جانب الغرب على أنها إلغاء للهوية الثقافية والدينية، وتهديد للمصالح السياسية والاقتصادية الغربية، وهو الأمر الذي أسهم في تكثيف الشعور الخوافي لديه. وينقل لنا سعيد حوى رحمه الله هذا الشعور على لسان أحد القادة الفرنسيين «إن الخطر الذي يهددنا تهديدا مباشرا وعنيفا هو الخطر الإسلامي، فَلْنُقَوِّ في نفسه عدم الرغبة في الإنتاج الصناعي والفني، فإذا عجزنا عن تحقيق هذه الخطة، وتحرر العملاق من عقدة عجزه الفني والصناعي، أصبح خطر العالم العربي وما وراءه من الطاقات الإسلامية الضخمة خطرا داهما، ينتهي به الغرب وينتهي معه دوره القيادي في العالم»(2).

إن ظاهرة الإسلام-فوبيا تنبع من هذه الرغبة الغربية في بقاء العالم الإسلامي يعاني من التخلف والاضطراب، فأكاذيب الغرب لم تعد تنطلي على أحد، وشعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان والإصلاح السياسي وتحرير المرأة ثَبَتَ أنها لا تنبع من رغبة صادقة، وأنه هو الذي أسهم في صناعتها دون أن ننكر دور المسلمين في ذلك.

المبحث الثاني: أصول ظاهرة الإسلام-فوبيا

إن لظاهرة الإسلام-فوبيا جذورا ضاربة في أعماق التاريخ وأصولا مبثوثة في البنية الفكرية للغرب، هذه البنية غالبا ما ترتكز على الاستعلاء والنظرة الدونية للآخر وتسويغ العنصرية والاستكبار بحجج واهية، مما أدى إلى إنتاج نظريات يتمحور مضمونها حول الصدام بين الحضارات، فتأجج الصراع الهوياتي بين الغرب باعتباره مركزا والمسلمين لكونهم هوامش ينبغي أن تكون تابعة بل ومُتحكّم فيها، فلم يجد الغرب منهجا سوى زعزعة ثقة المسلمين بأنفسهم وبثّ الفوبيا من الإسلام؛ فما هي الأصول التي بنى عليها الغرب هذه النظرة تجاه الإسلام؟

(1) كولز، بول. العثمانيون في أوروبا، ترجمة عبد الرحمان عبد الله الشيخ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993)، ص 119.

(2) حوى، سعيد. جند الله تخطيطا، (مكتبة وهبة، القاهرة، 1983)، ص 22.

أولا: الأصول السيكولوجية للإسلام-فوبيا

لعبت الظروف المناخية الصعبة وتقلبات الطقس المزعجة الذي تعرفه نصف الكرة الأرضية الشمالي، وما تثيره من برق ورعد وعواصف ثلجية وسيول وأعاصير وغير ذلك مما تقف معه الحيلة البشرية عاجزة، دورا هاما في تشكيل شخصية الإنسان الغربي نفسيا وعقليا، حيث سيطرت عليه الهواجس والمخاوف التي عادة ما تهدد حياة الإنسان واستقراره، فيفقد أمله في العيش الهانئ الهادئ.

وفي هذه الظروف تشكلت النواة الأولى للمجتمع الغربي حيث عاش الفترات الأولى من نشأته حالة من الخوف الشديد، والرهبة المريرة من أن تفاجئه الأقدار ويلحقه غضب الطبيعة التي تكسر وتدمر دون رحمة كل ما تطاله بشكل يوحي باستهداف مقصود.

من ثمة، فلا غرابة أن تتلبس هذه العقلية هواجس هذا العدو المباغث المجهول الذي يجلب المتاعب أحيانا، وأحيانا أخرى يصحبه الموت المحقق، علاوة على ما تثيره هذه الحالة في النفس من أوهام الخوف والرهبة والرعب والفزع الدائم، والقلة والجوع والمصير المجهول...

وحتى بعد بعثة الأنبياء ونزول الرسالات السماوية التي أتت لتطمئن الإنسان وتبشره، لم يقوَ الغرب على التحرر من هذه المخاوف، بل إن حالة الخوف هذه أمست مع مرور الزمن خاصية نفسية وعقيدة راسخة ومكونا أساسيا من مكونات النسق الثقافي والسياسي والاقتصادي والعسكري الغربي، لم يجرؤ أحد من مفكري الغرب، قديمهم وحديثهم، على إنكاره، بل إن التراث الغربي يكاد يكون شاهدا قويا على هذا الطرح، يقول فيلسوف التنوير الألماني إمانويل كانط «الناس في حال الفطرة يشعرون بأن مجرد حضور الآخر، سواء كان فردا أو شعبا، يتضمن في حدِّ ذاته تهديدا» [1]، أما الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون فيزعم «أن أكبر مشكلة في العصر الحديث هي أقدم مشكلات المجتمع الإنساني: الخوف من الآخر، وهذا الخوف إنما يقود إلى فقدان الثقة والكراهية، وإلى التجرد من الصبغة الإنسانية، وإلى الموت»[2]: فالغرب لم ينعم بالطمأنينة والسكينة خلال معظم فترات تاريخه، وإنما كان في صراع دائم مع ذاته ومع الآخر ومع الكون ومع الحياة بصورة تبعث على التشاؤم والاضطراب حتى في حالة توفر شروط وأسباب الهدوء والسكينة والاطمئنان،

(1) كانط، إمانويل. مشروع السلام الدائم، ترجمة عثمان أمين، (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1976، ط 2)، ص 30.

(2) كلنتون، بيل. لا تحدثني عن الاقتصاد العالمي، جريدة الوطن السعودية، العدد 458، السنة 1422 هـ.

لأن حضارته «لا تستطيع أن تعيش بدون عدو يضمن تماسكها واستمرارها، فإن لم يكن لها عدو فلتصنع عدوا، وإن لم تستطع صناعة الأعداء لاستمرار التعبئة والمواجهة، ترد سهامها إلى ذاتها فتتآكل من داخلها أو يتحول عدوانها إلى الداخل»[1].

وبالتزامن مع هذه الظروف الطبيعية القاسية، كان الغرب دائم التطلع لتحقيق نوع من الاستقرار المعيشي ليضمن استمراره وكينونته، فكان من الطبيعي حدوث صراعات بين المجتمعات الغربية الصغيرة وبعضها البعض، ومع توالي الصراعات حملت شخصية الإنسان الغربي معاني وطبع الغلظة والشدة والقسوة حتى يتحكم في وسائل العيش الرغيد الآمن والمستقر.

إن ضغط الإحساس بالقلق المتوالي والخوف من المستقبل المجهول دفع الإنسان الغربي لنسج أوهام وخرافات عن الله والكون والإنسان طلبا للطمأنينة واستجلابا للاستقرار، ولقد أسهم هذا القلق في أن تطغى على نفسية هذا الإنسان حالة الهمجية والتوحش التي لا تحتاج إلا إلى مثير يوقظها من وجدانه، وقدر الله تعالى أن يكون المثير مع بداية الألفية الثالثة الإسلام أو الخطر الأخضر كما يطلقون عليه، بعد تواري الخطر الأحمر ممثلا في المد الشيوعي الذي قاده الاتحاد السوفيتي في بداية القرن الماضي.

وجدير بالإشارة أن سيطرة هاجس الخوف من الآخر لدى الغرب يعزى بالأساس إلى فقدان العقلية الغربية لبعدها الإنساني الذي يمنحها وظيفة حضارية وموقعا مركزيا بين الأمم نتيجة تحكم دوافع سيكولوجية ورغبات اقتصادية، هذه الرغبات «تأخذ شكل حاجات بيولوجية مثل الحاجة إلى البترول»[2]. ولنترك الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز (1558-1679) يصف لنا طبيعة سلوك الإنسان الغربي وعلاقته بالآخر فيقول «إن السلوك الإنساني يهدف إما إلى الكسب أو المجد، أي أن الدافع وراء سلوكنا ليس محبة رفاقنا بقدر ما هو حبنا لأنفسنا، إن أحدا داخل مجتمع السوق لا يتمتع بالأمن، فالسوق لا يكتفي بتحديد قيمة كل فرد وممتلكاته وحسب، بل يترتب عليه أيضا خوف الفرد من لجوء أحد الخاسرين إلى العنف، وعلى الرغم من أن العلاقات الإنسانية مبنية على التنافس داخل

(1) حسنة، عمر عبيد. مقدمة كتاب الإسلام وصراع الحضارات، (أحمد القديدي، سلسلة كتاب الأمة، 1996)، ص 27.

(2) مسألة الهوية، مرجع سابق، ص 149.

مجتمع السوق، فإن هذا الوضع أفضل بكثير من الحروب الصريحة»[1]. هذه هي قيمة الإنسان كما حددتها فلسفة الصراع في الغرب.

ولئن كان الغرب حقق فترات تطور حضاري عبر التاريخ البشري، إلا أن طبيعته لم تتغير من حيث جوهرها النفسي والأخلاقي والديني عما كان عليه أجداده القدامى، فلم تؤثر فيه الرسالات والنبوات والفلسفات الأخلاقية إلا بنسبة ضئيلة ومحدودة، بل طغى عليه هاجس الخوف حتى وهو في قمة تطوره المادي والعلمي، وهذا ما يفسر انبعاث الفلسفات النفعية والثقافات التبريرية والسلوكات العدوانية في المجتمعات الغربية بين الحين والآخر، كل ذلك من أجل تحقيق أقصى درجات القوة والتفوق.

إن عقدة الآخر التي أصيب بها الغرب ولا زال يعاني منها تدفعه دائما إلى ابتداع عدو جديد تحت تأثير الرغبة الجانحة إلى قهر الأمم والشعوب والوصاية عليها، وهذه العقدة ينسبها أحد المفكرين الغربيين المعاصرين لما يسميه بالصدمة الثقافية، إذ «إليها يرجع الكثير من الحيرة والجمود والعجز عن التكيف الذي يصاب به الغربيون في تعاملهم مع المجتمعات الأخرى»[2].

هذا النسق الاجتماعي والثقافي الذي يتحدث عنه ألفن توفلر يصدر عن فضاء مجذب أخلاقيا وروحيا، لا يمكن إلا أن يسيطر عليه الخوف والرهبة، وتتنازعه الرغبة في السيطرة والاستحواذ نتيجة الضغط النفسي الذي يوحي بإمكانية تلاشي فرص البقاء والاستمرار في وضع اجتماعي اقتصادي يتسم بالوفرة والرفاهية والتميز، لذلك كلما لامست هذه الأفكار وجدان الإنسان الغربي خيمت على تفكيره الحروب والصراعات وخطاب النهايات أو ما يصطلح عليه النزعة الأبوكاليبسية[3] التي تهتم بالنهايات الأخيرة (نهاية العالم، نهاية التاريخ، موت الإله، موت الإنسان...)، وفي هذا السياق تأتي كتابات وإصدارات مثل (نهاية التاريخ) لهيجل وماركس وفوكوياما... وفي ذات السياق نعثر على دراسات تنظر للإنسان الذي يطمح الغرب لإنتاجه حتى يقوى على قيادة العالم، وهو السوبرمان Superman أو الإنسان

---

(1) رايلي، كافين. الغرب والعالم، ترجمة عبد الوهاب المسيري وآخرون، (سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1405 ه)، ص 36-37.

(2) توفلر، ألفن. صدمة المستقبل، ترجمة محمد علي ناصف، (دار مصر للطباعة والنشر، 1974)، ص 11.

(3) مصطلح الأبوكاليبسApocalypse هو رمز للحظات الأخيرة في العالم، والتي ستشهد ظواهر مرعبة، تدفقات طوفانية للأنهار، انهيار الجبال، انشقاقات كبرى في الأرض، معانقة السماء من خلال انقصاف لا توصف، وبالتالي أصبحت الأبوكاليبس رمزا لنهاية العالم، يُنظر: ,Robert Laffont ,Dictionnaire des sym-boles1982، نقلا عن عزيز لزرق، الفلسفة والتحولات العالمية، مجلة فكر ونقد العدد 22 .

الأعلى أو المتفوق كما يسميه الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، هذا الطموح يبرهن على مدى القلق الذي تلبس بالإنسان الغربي وفكره حتى أضحى جزءا من شخصيته، مما ينبئ باستمرار حالة الجموح والانفلات سواء على مستوى الفكر أو الواقع لدى الغرب.

إذا كانت هذه هي الحالة النفسية للذات الغربية في تعاملها مع الآخر، فهل لها تأثير على الانتاجات الفكرية والفلسفية؟ وهل تعبر هذه الإنتاجات عن حالة الرهاب والخواف من هذا الآخر؟

ثانيا: الأصول الفلسفية للإسلام-فوبيا

راكم الإنسان الغربي على مر العصور موروثا ضخما من الأفكار والمعتقدات أصبحت تدريجيا مادة أساسية في بنية فكره وسلوكه، سرعان ما تحولت إلى فلسفة للحياة تحكم هذا الإنسان وتوجهه في جميع مناحي حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، وهذه الفلسفة ذات الأساس الاستعلائي هي التي طبعت نظرته للمختلِف عنه، ومنه الإسلام وحضارته.

نعثر على هذا الاستعلاء والعنصرية والنظرة الدونية للآخر في بواكير الفكر الغربي الذي تمثله الفلسفة اليونانية إذ تعتبر الجنس الإغريقي سيدا خُلِق للأمر والنهي، وغير اليونانيين عبيد خُلقوا للطاعة والخدمة، ورغم حضور فكرة «أن كل فرد يؤدي وظيفة واحدة في المجتمع، تلك التي وهبته الطبيعة خير قدرة على أدائها»[1] آنئذ، فإننا نجد فيلسوفا كبيرا من حجم أرسطو يسوغ هذا الاستعلاء في كثير من مؤلفاته، ففي كتاب السياسة يزعم «أن الطبيعة هي التي خلقت بعض الكائنات للإمرة وبعضها للطاعة، وهي التي أرادت للكائن الموصوف بالعقل أن يأمر بوصفه سيدا، كما أن الطبيعة هي أيضا التي أرادت أن الكائن الكفء بخصائصه الجسمانية لتنفيذ الأوامر أن يطيع بوصفه عبدا... جلي أن بعضهم عبيد بالطبع وبعضهم أحرار بالطبع، وأن ... الإمرة التي يُخلق لها بعضهم، والائتمار الذي يُجْبل له البعض الآخر عادلان لا بل متوجّبان»[2].

وفي نص ثان من نفس المصدر نقف على جذور العداء الغربي الذي ورَّثه الأجداد للأحفاد حيث يدعي أبو الفلاسفة أن غير اليونانيين برابرة يسوون في معاملتهم بين المرأة والعبد

(1) أفلاطون، الجمهورية، ترجمة فؤاد زكريا، (دار الكتاب العربي، مصر، 1968)، ص 138.
(2) أرسطو، في السياسة، ترجمة الأب أوغسطينس البولسي، (اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع 1980، ط 2، الباب 1، الفصل 2)، ص 19-20.

فيقول «وعند الأعاجم[1] المرأة والعبد هما كائنان من طبقة واحدة، والسبب في ذلك بسيط، وهو أنهم خالون من المؤهلات الطبيعية للرئاسة، فليس فيهم حقا إلا من عبد ومن أمة، ولم ينخدع الشعراء إذ يقولون: (اليونان طبعا سادة الأعاجم)، كأنما الأعجمي والعبد بالطبيعة واحد»[2].

هذا هو مبرر أرسطو للعنصرية والاستكبار على باقي الأجناس والحضارات، فالطبيعة هي التي جعلت الجنس الإغريقي سيدا على كل أمم الأرض، وكل أمم الأرض عبيدا له، ومن واجب العبد طاعة أوامر السيد طوعا أو كرها، وهو ما تصبو لتحقيقه الحضارة الغربية المعاصرة في تعاملها مع باقي الحضارات.

ولا غرو أن أرسطو بتراثه الكبير ومكانته الرفيعة في النسيج الفكري والثقافي والسياسي والاجتماعي قد أثر في تشكيل نظرة الغرب لباقي الأجناس والحضارات، ومنها الإسلام.

قد لا يختلف اثنان أن الفلاسفة المحدثين والمعاصرين ارتشفوا من ألبان أجدادهم القدامى، وتغذوا من معين فكرهم وثقافتهم، لذا فلا غرابة أن نجد الفيلسوف الألماني فريدريتش نيتشه (1844- 1900م) يتحدث بالقاموس نفسه الذي وظفه أرسطو، فيقول في كتابه (أصل الأخلاق وفصلها) واضعا مواصفات الإنسان القوي «إن الذي يجيد إعطاء الأوامر، ذلك الذي جعلت منه الطبيعة سيدا، ذلك الذي ينم عن قوة في نتائجه وفي سلوكه، مثل هؤلاء يمكن الاعتماد عليهم... تظهر حياة جديدة معهم»[3]، كما أن الحياة في نظر نيتشه هي التي «لا يمكن أن نحياها وتستمر إلا على حساب حياة أخرى، لأن الحياة هي النمو، وهي الرغبة في الاقتناء وإرادة السطو على الآخرين، ولا يمكن أن تفهم الحياة على غير هذا النحو، وإن هذا الاستيلاء سيجد مقاومة من أنواع الحياة الأخرى التي تصطدم وإياها، وكلما كثرت المقاومة واشتدت الخصومة زادت قيمة الحياة، وفي المقاومة أخطار... والحياة تنشد الأخطار، فكأن إرادة القوة هي في الوقت ذاته إرادة الخطر، فلكي تجني من الوجود أسمى ما فيه: عش في خطر»[4].

(1) الأعاجم أو البرابرة أو المتوحشون في عرف اليونان القدماء «هم عبيد بالفطرة أو بالطبيعة، كالسائمة والحيوان المباح، تملكه بالصيد أم الحيازة ووضع اليد، وهذا هو العدل عند أفلاطون» ينظر: حلمي، مرزوق. الإسلام في الفكر المعاصر، (دار النهضة، بيروت، 1982)، ص 21.

(2) في السياسة، مرجع سابق، ص 6-7.

(3) نتشه، فريدريك. أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة حسن قبيسي، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1983)، ص 14.

(4) المرجع نفسه، ص 66.

الإنسان الذي ينشده الغرب ويريد إنتاجه هو السيد الذي يتقن إصدار الأوامر، والحياة التي يرومها هي التي تحفّ بها المخاطر وتقوم على حساب الآخرين بالسطو والقوة.

ثم إن قراءة متأنية للنظرية الداروينية[1] التي أحكمت خناقها على الفكر والواقع الغربيين ردحا من الزمان غير يسير، ولا زالت، تظهر بجلاء أن العنصرية والاستعلاء سمة من سمات الإنسان الغربي، فوَفقا لداروين، هناك صراع قاس ونزاع أبدي في الطبيعة من أجل البقاء، ودائما القوي ينتصر على الضعيف، مما يمكن من حدوث التطور، وبالتالي فالإنسان حيوان تطور بالقتال من أجل البقاء، كما أن السلالات البشرية تتصارع والسلالات المفضلة هي المنتصرة في النهاية، وهذه السلالات من وجهة نظر داروين هم الغربيون البيض، أما السلالات الأخرى كالأفارقة والآسيويين فقد تخلفوا في الصراع، بل إن هذه السلالات ستُفْقَد كلية من الصراع من أجل البقاء[2].

إن تحكم هذه الفلسفة في الثقافة الغربية لا يمكن أن ينتج غير المصائب التي يكتوي الأبرياء بلظاها، حيث تَصَوَّر الغرب وساسته الأغيار سلالات بدائية في طور الارتقاء فاستعمروها واستولوا على خيراتها بعدما صرعوا أهلها، كما أن الحربين العالميتين كانتا نتيجة حتمية لهذه النظرية، دون أن ننسى الأنظمة الشمولية الديكتاتورية التي خرجت من صلبها كالنازية والفاشية والستالينية... وأخيرا الحرب على الإسلام باسم الإرهاب.

لقد وجد الغرب ضالته في هذه النظرية بحيث أعملها وطبق بنودها في نظرته وتعامله مع الآخر المختلِف عنه، فكان أول عدو صوب الغرب الحديث سهامه إليه الاتحاد السوفياتي سابقا الذي انهار بداية تسعينات القرن الماضي «فانتشى الغرب انتشاء لم يسبق له مثيل، وأعلن جورج بوش الأب ولادة النظام العالمي الجديد، وكما انتشى القادة العسكريون والسياسيون كذلك انتشى المفكرون حين أعلنوا أن الحضارة الغربية هي نهاية التاريخ، وكل حضارة أخرى عليها أن تكتب بيدها شهادة وفاتها»[3]، عندئذ خلت الساحة من العدو

(1) نسبة إلى داروين تشارلس (1908-1882)، والإجماع واقع أن الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر (1820-1903) هو واضع قواعد هذه النظرية في كتابه (الرجل ضد الدولة) حيث أوجد فكرة (البقاء للأقوى) وهي الفكرة التي طورها داروين فأنتج نظرية النشوء والارتقاء.

(2) داروين، تشارلس. أصل الأنواع: نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي والاحتفاظ بالأعراق المفضلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة، ترجمة مجدي محمود المليجي، (المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2004)، ص 37 وما بعدها.

(3) خضير جعفر، نحن وفوكوياما ونهاية التاريخ، مجلة المجتمع الثقافي، بيروت، العدد 1313، السنة 1419 هـ، ص 45.

المخيف الذي يضفي على حياة الغرب ووجوده قيمة، فانبرى مجموعة من المنظرين للتهيؤ للعدو القادم، وإعادة إنتاج الخوف والترقب والقلق والتوجس في الشخصية الغربية.

في هذا السياق ينقل لنا فانسن جيسير في كتابه الإسلام-فوبيا الجديدة، بِنَبْرة لا تخلو من تخويف «أن الخلل الديموغرافي الذي يتقوى في الحوض الأبيض المتوسط لفائدة الضفة الجنوبية، يمكن أن يجعل عودة الإسلام القوية إلى أوروبا في القرن القادم شيئا ممكنا»[1].

ويدعي برنارد لويس مستحضرا البعد التاريخي للصراع الإسلامي الغربي أن الغرب «يواجه مزاجا وحركة (يقصد حركة الإسلام السياسي) تتجاوز كثيرا القضايا والسياسات والحكومات التي تنتجها، وليس هذا أقل من الصراع متمثلا في رد فعل غير رشيد، لكنه تاريخي بالتأكيد من جانب منافس قديم ضد تراثنا اليهودي المسيحي وضد حاضرنا العلماني، فضلا عن الانتشار العالمي لكليهما»[2].

بينما يعتبر صاحب فكرة صدام الحضارات صمويل هنتجتون الديمقراطية الغربية «سببا في تعزيز وتقوية القوى المناهضة للغرب... وهي تعقد العلاقات بين الدول الإسلامية والغرب»[3]، كما أن «ارتفاع معدل الزيادة السكانية بالدول العربية ولا سيما في شمال إفريقيا أدى إلى تزايد الهجرة إلى غرب أوروبا، وزادت التحركات داخل أوروبا الغربية بهدف إزالة الحدود الداخلية فيما بينها من الحساسية السياسية فيما يتعلق بتلك الهجرة، وفي إيطاليا وفرنسا وألمانيا تأخذ العنصرية شكلا أكثر صراحة بدرجة متزايدة، كما أن ردود الفعل السياسي، والعنف ضد العرب والأتراك باتت أكثر حدة وانتشارا... وعلى كلا الجانبين يُنظر إلى التفاعل بين الإسلام والغرب على أنه أكثر من صراع بين الحضارات»[4].

إن التطور الديمغرافي في البلاد الإسلامية وبخاصة جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط والهجرة العمالية واندماج الأجيال في النسيج الاجتماعي الغربي، إضافة إلى استحضار الصراع التاريخي، زرع الرعب في قلوب الساسة والمفكرين الغربيين فنمت العنصرية والاستعلاء بشكل صريح في مجتمعاتهم واستشرى العنف بحدة.

(1) Geisser, Vincent. La nouvelle Islamophobie. (Paris, La Découvert, 2003), p 46.

(2) Lewis, Bernard. The Roods of Muslim rage, (the Atlantic Monthly, Vol 266, 1990), p 60.

44- هنتجتون صمويل. الإسلام والغرب آفاق الصدام، ترجمة محمد شرشر، (مكتبة مدبولي، مصر، ط 1، 1995)، ص 26.

(3) المرجع نفسه، ص 25–26.

(4)

إن التخويف من الإسلام بواسطة إنتاج مثل هذه الفلسفات والنظريات تحذر من الآخر يظهر بجلاء منسوب الفوبيا لدى الغرب، وهنتجتون يجلي ذلك عندما يقارن بين الحضارتين الكونفسيوشية والإسلامية فيجعلهما على قدم المساواة في صراعهما مع الغرب إلا أن خطر الأولى بطيء معتدل، في حين أن الثانية متوحشة ومفترسة، وهي مقارنة تروم الإيهام بأن الإسلام وحده يبقى العدو اللدود والتهديد المحدق بالغرب وحضارته وقيمه.

وإذا كانت هذه بعض من الأصول الفكرية لظاهرة الرُّهاب الإسلامي الكامنة في وجدان الإنسان الغربي وفلسفته وفكره، فما هي جذورها السوسيولوجية؟

ثالثا: الأصول السوسيولوجية للإسلام-فوبيا

ترسخت أقدام الإسلام في أوربا منذ القديم، حيث دخل المسلمون إلى أجزاء كبيرة من إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا نهاية القرن الأول الهجري الموافق لبداية القرن الثامن الميلادي حيث «كان ابتداء الجالية الأندلسية بفتح طارق بن زياد سنة 711م، وآخرها بقرار ملك إسبانيا بتاريخ 22 سبتمبر 1609م بطرد الأندلسيين من جميع أراضيه، فخرج آخر مسلم سنة 1614م، وبهذا يكون الوجود الإسلامي دام تسعمائة وثلاث سنين بالضبط»[(1)]، لكن الوجود الذي يهمنا هو ذلك الذي حدث في القرن العشرين حيث تأثر بالعلاقات الجديدة التي نشأت بين دول الإسلام وأوربا، وهي علاقات اتسمت بالصراع والهيمنة الأوربية من جهة، وتعاظم الشعور بالدونية والتأخر التاريخي لدى المسلمين من جهة أخرى

وقد كانت الحرب العالمية الثانية عاملا حاسما في تزايد عدد المهاجرين لسببين اثنين:

- **أولهما:** حاجة أوربا لأيد عاملة تشتغل في المصانع والمعامل وتساهم في عملية تطوير الاقتصاد.
- **ثانيهما:** أمام الخسائر البشرية الهائلة كان لزاما تطعيم الجيوش بجنود يحلون محل القتلى الأوربيين.

إلا أن الانطلاقة الحقيقية لحركة الهجرة نحو الغرب خلال القرن الماضي كانت بعد هذه الحرب وبشكل خاص في الستينات حيث «أدارت أوربا وجهها مرة أخرى لدار الإسلام لتجلب منها لا المواد الأولية فقط بل اليد العاملة كذلك»[(2)]، نظرا للازدهار والتطور الاقتصادي الذي عرفته الدول الغربية، فأمست الحاجة ملحة إلى أيد عاملة تسهم في عملية البناء،

(1) الكتاني، علي بن المنتصر. المسلمون في أوربا وأمريكا، (دار الكتب العلمية، بيروت 2005)، ج1، ص 76.

(2) المسلمون في أوربا وأمريكا، مرجع سابق، ج1، ص 79.

وكانت النتيجة أن ازداد عدد المسلمين في أوربا بصورة هائلة حتى أصبحت الديانة الإسلامية الديانة الثانية بعد المسيحية في عدد من الدول مثل فرنسا.

والجدير بالذكر أن مسألة الهجرة لم تُثِرْ مشاكل في أوربا قبل سبعينيات القرن الماضي رغم تزايد عدد المهاجرين المسلمين[1]، لأن الأوربيين كانوا يتصورون أن إقامة هؤلاء ظرفية فرضتها ظروف مؤقتة، وستنتهي بمجرد زوال هذه الظروف، ومع مرور الوقت بدأ يخيب ظن الأوربيين لتضافر عوامل متعددة ساهمت في إطالة عمر هذه الإقامة المؤقتة، منها:

- تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والنفسية والسياسية في البلدان المصدرة للمهاجرين.
- الخوف على مستقبل الأبناء الذين ولدوا وتربوا على ثقافة البلدان المستقبلة ولغاتها.
- لذلك طرح الوجود الإسلامي في أوربا بعد السبعينات من القرن المنصرم مشكلات كثيرة أسهمت في تنامي مشاعر الخوف والتوجس من المسلمين لدى الأوربيين، منها على سبيل الذكر:
- مشاكل اجتماعية: تمثلت في قضية الهوية والتأقلم والاندماج في المحيط الجديد واحترام ثقافة وعادات وتقاليد البلد المحتضن.
- مشكلة ديمغرافية: حيث تشكل إحساس بالخوف من تزايد عدد المهاجرين وأبنائهم على نحو يحدث اختلالا في البنية الديمغرافية الأوربية[2].
- مشاكل دينية: وترتبط بهامش الحرية الذي يسمح به بممارسة الطقوس الدينية في ظل نظام لائكي لا يجيز حمل علامة تميز المهاجرين وأبناء الجاليات الإسلامية عن أهل البلد، كاللباس (قضية الحجاب مثلا) والمواد الغذائية الحلال (نوعية اللحوم وطريقة الذبح) عيد الأضحى (حقوق الحيوان).
- مشكلات أمنية: فقد أدى الانقطاع الدراسي واكتفاء أبناء الجاليات بحظ متواضع من التحصيل العلمي، إضافة إلى تعرضهم لسلوكات عنصرية، وتهميشهم وقلة فرص التأهيل والتدريب المهني، وأحيانا فهمهم السطحي لبعض تعاليم الدين الإسلامي...

---

(1) رغم أن القوانين في أوربا تمنع إحصاء السكان بحسب الهوية العرقية والدينية، فقد بلغ عدد المسلمين في أوربا سنة 2014 .

حوالي 56.19 مليون نسمة من أصل 739.81م، وهذا الرقم يمثل نسبة 7.6% ينظر:

http://www.muslimpopulation.com/Europe (بتاريخ 20 أكتوبر 2014)

(2) نيلسن، يورغن. المسلمون في أوروبا، ترجمة وليد شميط، (ط 1، بيروت، 2015)، ص 83.

كل ذلك أدى إلى تفشي ظاهرة الجنوح وممارسة بعض مظاهر العنف بنوعيه المادي والرمزي تحت مبرر الدفاع عن الهوية الدينية، مما ولّد شعورا بالخوف لدى الغربيين.

- مشكلات سياسية: تتمثل في خشية الغرب من انخراط الجاليات الإسلامية في العمل الحركي داخل بلدان الاستقبال من خلال تشكيل لوبيات ضاغطة كما هو الحال بالنسبة للجاليات اليهودية، أو الانخراط في العمل السياسي الرسمي والترقي في مدارج التنظيمات الحزبية والنقابية والطلابية والوصول إلى مراكز القرار، وتحقيق الاندماج المطلوب مع الحفاظ على الهوية الدينية والثقافية ورفض الانصهار في نمط الحياة الغربية، إضافة إلى الخوف من الانتساب إلى بعض الجماعات المدرجة ضمن لائحة المنظمات الإرهابية مثل (داعش)(1).

ويبدو أن فشل عملية الاندماج يمكن النظر إليه من زاويتين:

الأولى تتعلق بالمهاجرين أنفسهم حيث ينظرون إلى الأمر بسلبية باعتبار أن هذه العملية تعدُّ استلابا وانفصاما وخيانة للبلد الأم.

والثانية تعود إلى سياسة الاندماج التي تنهجها دول الغرب والتي ينصب اهتمامها في الغالب الأعم على ضمان الأمن الاستقرار ومكافحة المخاطر المحدقة، ولا تُولي عنايتها بالفرد المهاجر وتأهيله وتهيىء برنامج واضح وجاد لإدماجه. وهذا ما يسهل عملية النفخ في كير الخوف والفوبيا التي يتقن ممارستها اليمين المتطرف بشتى الوسائل والطرق المتاحة.

خاتمة:

حاولت في هذا المجهود المتواضع الإجابة عن الإشكال المتعلق بالأصول الفكرية والنفسية والاجتماعية لظاهرة الإسلام-فوبيا، فخلصت إلى أن الخوف من الآخر متلازمة تاريخية تلبست بالإنسان الغربي منذ البدايات الأولى لنشأته، نتيجة افتراضات وهمية تتعلق بالطبيعة والاقتصاد والسياسة والإيديولوجيا.

---

(1) يوضح التقرير لدايلي بيسْت أن العدد الأكبر من الأجانب الذين ينضمون لدعش ليسوا من الدول الإسلامية الكبرى لكن من الغرب، فعلى سبيل المثال هناك أكثر من 700 مسلم من فرنسا منضمين للتنظيم من إجمالي 5 ملايين مسلم يعيشون هناك. بينما هناك أكثر من 500 من بريطانيا من إجمالي 7،2 مليون مسلم، و350 من ألمانيا من بين حوالي خمسة ملايين، في حين أن أندونيسيا، مثلا، الدولة التي يوجد بها أكبر عدد من المسلمين في العالم (حوالي 200 مليون) يقدر عدد من انضم لداعش بحوالي 30 فقط، بينما الهند يوجد بها 120 مليون مسلم انضم منهم إلى التنظيم أقل من 20. انظر الموقع الأمريكي:
www.thedailybeast.com/search/html?q=The+number+of+Westerners+in+ISIS

ومع توالي العصور ترسخ الإحساس بالخوف في الوجدان والعقل الغربي وأصبح عرَضاً مرضيا له أصل في الفكر والسياسة والاجتماع، وأَضحى باعثا على التسلح والتأهب والعنف في مواجهة الأعداد الفعليين والمفترضين، وأخيرا أمسى دافعا لتحقيق العيش الرغيد والحياة الهانئة المرتكزة على السطو والنهب والسرقة «المشروعة».

وشاءت الأقدار أن يطفح هذا الداء العضال في سياق الانبعاث الإسلامي الذي عرفته الساحة بعد أن تواري الأعداء الآخرون وأعلنوا هزيمتهم وأقصد المعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفياتي المفتت، حيث كان الظرف موائما لنفث شحنة من الشعور الخوَّافي تجاه الإسلام والمسلمين، وذلك نتيجة:

تأثير الفكر اليوناني على نمط التفكير الغربي الراهن، إذ أن الدول الأوربية الموجودة اليوم ما هي إلا امتداد للدولة اليونانية، فقد ورثت أوربا عن اليونان فكرة احتقار الآخر، وكانت هذه الفكرة عامة في اليونان، فقد سيطرت على كبار المفكرين فحرمتهم من النظر إلى غيرهم من البشر نظرة المساواة، وهذه الرؤية هي التي أنتجت نظريات وفلسفات صراعية كالداروينية والنيتشوية والنفعية...

تحكُّم فلسفات الصراع في مقاليد الفكر الغربي وفي مقدمتها النظرية الداروينية التي وجهت الفكر الغربي، ولا زالت، وفق مبدأ البقاء للأصلح، حيث أن هناك صراعا مستمرا بين السلالات البشرية سينتهي لا محالة بانتصار حضارة الرجل الأبيض. إن سيادة هذه الفلسفات أنتج كوارث اكتوت بنارها الإنسانية على المستوى العسكري (الاستعمار الغربي لدول الجنوب، الحربين العالميتين)، وعلى المستوى الفكري (بروز نظريات كصدام الحضارات ونهاية التاريخ)، أما آثارها على المستوى السياسي فمنها ظاهرة الإسلام-فوبيا.

دخول المسلمين للبلدان المجاورة ووصولهم إلى الحدود الجنوبية لفرنسا، ويعتبر في اعتقادي بمثابة الشرارة الأولى لنشأة ظاهرة الإسلام-فوبيا، باعتباره أول احتكاك بين الإسلام بوصفه حضارة ودين من جهة، وبين الغرب ممثلا في الإمبراطورية الرومانية / البيزنطية، وريثة الحضارة اليونانية من جهة ثانية، حيث تملَّك الغرب شعور بالخوف مشوب بالاستغراب. الخوف من المارد الجديد الذي أتى لينتزع الريادة الحضارية، والغرب معتاد على حمل هذا المشعل وحيازته بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروع، أما الاستغراب فسببه سرعة هذا المارد من رصِّ صفوفه وتعبئة رجاله لنشر دينه وقيمه الجديدة. لقد آلَمَ كل ذلك صناع القرار في الغرب من ساسة ورجال دين وأفزعهم، فراحوا يفسرون انتشار الإسلام بأنه تمَّ بالعنف والإرهاب بهدف بث روح الخوف والانتقام في صفوف المسيحيين.

لائحة المصادر والمراجع

كتب باللغة العربية

• القرآن الكريم برواية ورش.

الكتب:

• ابن منظور، محمد بن جلال الدين بن مكرم، لسان العرب، (طبعة دار المعارف، بدون تاريخ).

• أرسطو، في السياسة، ترجمة الأب أوغسطينس البولسي، (اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع 1980، ط2).

• اسبوزيتو، جون، التهديد الإسلامي حقيقة أم أسطورة، ترجمة عادل المعلم، (دار الشروق، القاهرة 1995).

• أفلاطون، الجمهورية، ترجمة فؤاد زكريا، (دار الكتاب العربي، مصر، 1968).

• توفلر، ألفن، صدمة المستقبل، ترجمة محمد علي ناصف، (دار مصر للطباعة والنشر، 1974).

• الجابري، محمد عابد، مسألة الهوية: العروبة والإسلام...والغرب، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 3).

• حلمي، مرزوق، الإسلام في الفكر المعاصر، (دار النهضة، بيروت، 1982).

• حوى، سعيد، جند الله تخطيطا، (مكتبة وهبة، القاهرة، 1983).

• داروين، تشارلس، أصل الأنواع: نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي والاحتفاظ بالأعراق المفضلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة، ترجمة مجدي محمود المليجي، (المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2004).

• رايلي، كافين، الغرب والعالم، ترجمة عبد الوهاب المسيري وآخرون، (سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1405ه).

• مؤلف جماعي، الجاليات الإسلامية في أوربا الغربية، دار النفائس، بيروت 2003.

• فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس فارس، (دار القلم، بيروت، د ت).

• الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، (دار الفكر، مادة سلم. الجوهري، الصحاح في اللغة، دار العلم للملايين).

• كانط، إمانويل، مشروع السلام الدائم، ترجمة عثمان أمين، (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1976، ط 2).

• الكتاني، علي بن المنتصر، المسلمون في أوربا وأمريكا، (دار الكتب العلمية، بيروت 2005).

• كولز، بول، العثمانيون في أوروبا، ترجمة عبد الرحمان عبد الله الشيخ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993).

• مجدي، أحمد محمد عبد الله، علم النفس المرضي دراسة في الشخصية بين السواء والاضطراب، (دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000).

• مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع صحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (دار عالم الكتب، الرياض، ط 1، 1417ه).

• الميلاد زكي والربيعو تركي، الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل، دار الفكر، دمشق، 2000.

• نتشه، فريدريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة حسن قبيسي، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1983).

• النفيسي، عبد الله، الإسلام والغرب: نحو عالم أفضل، (مركز الجزيرة للدراسات والأبحاث، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2007).

• نيلسن، يورغن، المسلمون في أوروبا، ترجمة وليد شميط، (ط 1، بيروت، 2015).

• هنتجتون صمويل، الإسلام والغرب آفاق الصدام، ترجمة محمد شرشر، (مكتبة مدبولي، مصر، ط 1، 1995).

لائحة المصادر والمراجع

الدوريات:

• القديدي، أحمد، الإسلام وصراع الحضارات، سلسلة كتاب الأمة، 1996.

• مجلة المجتمع الثقافي، بيروت، العدد 1313، السنة 1419هـ.

• مجلة التسامح، العدد 24، سلطنة عمان، 2008.

• جريدة الوطن السعودية، العدد 458، السنة 1422هـ.

• جريدة الشرق القطرية، العدد 7844، 2009.

باللغات الأجنبية:

• Dictionnaire de L'Académie français, 8éme Edition (1932 – 35).

• Dictionnaire Larousse, librairie Larousse, paris, 2005.

• Freud, Sigmund. Analysis of a phobia in Five-year-old Boy, 1909.

• Geisser, Vincent. La nouvelle Islamophobie. (Paris, La Découvert, 2003).

• Lewis, Bernard. The Roods of Muslim rage, (the Atlantic Monthly, Vol 266, 1990).

• Renan, Ernest. Etudes d'histoire religieuse, (7éme Ed, 1864, la librairie nouvelle, paris).

المواقع الإلكترونية:

• www.muslimpopulation.com

• www.Runnymedetrust.org

• www.thedailybeast.com